قصة قصيرة مترجمة

ليلة من ليالي الشتاء

قصة قصيرة لـ المنشئ بريم تشند

ترجمة لـ: د. قمر شعبان *

قال هلكو لزوجته: "جاءني شهنا، أعطيني ما لديكِ من الروبيات أسدد بها ديوني".

كانت زوجته موني مشغولة بالكنس، فولَّت وراءها قليلاً، وقالت: "ليست لدي إلا ثلاث روبيات؛ إن أعطيك إياها، فكيف أشتري البطانية، وكيف تنقضي ليالي الشتاء القارسة في الحقول؟ قل له سوف نسدد الدين بعد الحصاد، لا نملك الروبيات الآن ".

وقف هلكو ساكتاً متأملاً لهنيهة؛ لقد حان الشتاء، فلا يستطيع أن ينام في الحقل في ليالي الشتاء القارسة من دون البطانية، ولكن لا يمكنه أن يُسكت شهنا؛ سوف يضجرني. عاد إلى زوجته مهموماً ومثقلاً بجسمه السمين الذي لم ينسجم مع اسمه، وطلب منها مراوداً: "آتيني ما لديك من الروبيات، لكي أخفف أعباء الديون، ولسوف أشتري البطانية بوسيلة أخرى."

ابتعدت زوجته موني قليلاً، وقالت محملقة إليه: "كيف نشتري البطانية بوسيلة أخرى؟ من سوف يشتري لك البطانية؟ ومن سوف يدبر لك؟ ومن يتبرع لك بالبطانية؟ كم هي الديون التي لا تستطيع تسديدها؟ أقول لك: لماذا لا تترك الحرث والزراعة؟ نموت في الحقول، ونسدد الديون بحصادها، يبدو أننا ولدنا فقط لتسديد الديون؛ إذن، لا تزرع، واترك الحقل، لن أعطيك الروبيات أبداً ".

نطق هلكو كئيباً حزيناً: "إذن، سوف يشتمني".

---

* أستاذ مساعد، قسم اللغة العربية، كلية الآداب، جامعة بنارس الهندوسية، فارانسي، الهند

موني: "لِمَ يشتمك؟ هل الملك كله له؟" ولكنها استكانت بعد هذا القول؛ اقشعرت جلودها من كلام هلكو، وخفق قلبها له .

يبدو أنها تأثرت بكلامه كثيراً، فأخذت الروبيات من المحراب، وسلمتها إلى هلكو قائلة: "اترك المزارعة، سوف نقتات من العمل، ويكفينا خبز واحد بالشرف والسعادة، ولا خوف بعد ذلك من ضجر أحد، فويل لهذه الزراعة؛ نزرع ثم نكسب من العمل، ونستهلك كل شيء على الزراعة، ورغم ذلك نواجه الضجر والتوبيخ ".

أخذ هلكو النقود، وخرج، وكأنه انتزع قلبه وأعطاه إياه، كان اكتنز فلساً فلساً نقداً وعدّاً، فأصبحت الآن ثلاث روبيات، أراد بها شراء البطانية، وهذه الروبيات المكتنزة فانية اليوم، في كل خطوة يخطوها كان ذهنه يتثقل تحت وطأة الإفلاس .

في الليلة الحالكة لشهر الشتاء، والنجوم مهتزة فوق السماء، كان هلكو يرتجف على جانب من حقله تحت مظلة لأوراق الذرى في سرير قصبي، مغطى بكسائه الكتاني، وكان كلبه جبرا مصاحبه يئن تحت السرير القصبي من شدة البرد واضعاً فمه على بطنه، كلاهما ساهران، والنوم بعيد عن عيونهما بعد المشرقين .

نطق هلكو جالساً القرفصاء: "ما بك يا جبرا، هل تشعر بشدة البرد؟ لقد كنت قلت لك أن تنام على قش الأرز في المنزل، لم أتيت هنا؟ وعندما أتيت فعان هنا من البرد، وليس لي أن أفعل لك شيئاً، وأنت تعلم كل شيء أنني لا أتيت هنا للتمتع بالحلوى والأخباز المقلية، لقد جئتَ على أثري مهرولاً، فعان هنا مما تعاني، وابك جدتك." حرك جبرا ذيله مسترخياً، فامتطى وسكت، ربما أدرك أن أنينه يتدخل في نوم صاحبه .

مسح هلكو بيده ظهر جبرا البارد قائلاً: "لا تأت معي منذ الغد، وإلا لتبردت للأبد، لا ندري من أين تهب هذه الرياح المغربية الثلجية، لنشعل النارجيلة وندخنها حتى تنقضي هذه الليلة، لقد دخنت ثماني نارجيلات حتى الآن، وهذه هي متعة الزراعة، وعلى جانب آخر، هناك رجال سعداء، إذا واجههم البرد القارس فر منهم البرد خوف الحر اللافح؛ لديهم الحشايا السمينة، والألحفة، والبطانيات، فأنى للبرد أن يتسلل إليهم، يا له من القدَر! نحن نعمل وهم يتمتعون "!

نهض هلكو، وأخذ النار من الحفير وأشعل النارجيلة، ونهض معه جبرا أيضاً، قال هلكو مدخناً النارجيلة: "هل ستدخن يا جبرا؟ لا يذهب منه البرد، ولكنني أتسلى قليلاً ".

نظر إليه جبرا بحب ودلال، فقال له هلكو: "لأعاني من البرد هذه الليلة فقط، ومنذ الغد سوف أفرش هنا قشوش الأرز، وستجلس بداخله، ولا يصيبك البرد ".

وضع جبرا مخلبيه الأماميين على ركبتيه مزلّفاً فاه إلى فيه، فأحس هلكو بأنفاسه الدافئة، ثم دخن النارجيلة، واسترخى من جديد، وقرر أن ينام بعد الآن مهما كان الوضع، ولكنه بعد هنيهة بدأ يرتجف من شدة البرد، متقلباً على الفراش يميناً ويساراً، والبرد لا يفتأ يستحوذ عليه كأنه عفريت ضغط على صدره بقوة .

وعندما عيل صبره، أيقظ جبرا بلطف، وأرقده في حضنه ماسحاً رأسه بتهدئة، كانت تنبعث من جسم الكلب رائحة نتنة غريبة، ولكنه يشعر بارتياح من ضمه، لم يشعر به منذ شهور، وكان جبرا يحس بأنه هو جنة الخلد. كانت روح هلكو طيبة لدرجة أنه لم يكره الكلب، كان يعاني من البؤس المفضي إلى هذا الوضع، لقد فتحت هذه الصداقة الاستثنائية كل أبواب روحه، التي تتنور كل جوانبها بالنور الحقيقي الأصيل، وخلال تلك الآونة، أحس جبرا بحركة بعض

الحيوانات، وقد أسبغت عليه روحانية صاحبه قوة جديدة يدرك بها حتى موجات الهواء العليل. انتفض على عجل نابحاً خارج الكوخ، ناداه هلكو بهدوء مرات وكرات؛ ولكنه لم يعد إليه؛ بل ظل ينبح مهرولاً من هنا إلى هناك داخل الحقل، وإن عاد للحظة، هرول من جديد. وقد جعله الشعور بواجبه مضطرباً .

مضت ساعة، وطفق البرد يشتد، هب هلكو جالساً، وأخفى رأسه بين ركبتيه الملتفتين بصدره، ولكن البرد ما زال شديداً، يبدو أن الدماء كلها قد تجمدت، نظر إلى السماء، كم بقي من الليلة؟! إن النجوم السبعة التي تدور حول القطب لم تُكمل حتى نصف شوطها، وعندما ترتقي إلى السماء، ينبلج الصبح، ولا زالت الليلة باقية أكثر من ساعة .

كان ثمة بستان على مسافة قليلة من حقول هلكو، لقد حلَّ الخريف، فتجمعت فيه كومة من الأوراق، فأراد أن يجمعها، ويشعلها ليستدفئ بها، وإن رآه شخص يجمع الأوراق خيل له أنه عفريت من الجن، ومن يدري؟ ربما يختفي فيه حيوان، ولكنني لا أستطيع الصبر أكثر .

اقتلع العديد من أشجار الفاصوليا من بعض الحقول المجاورة، وجعل منها مكنسة، وأوقد ناراً، وتوجه إلى البستان، عندما رآه جبرا منطلقاً، دنا منه محركاً ذيله .

"لا أطيق أن أتجمل أكثر يا جبرا، فلنمش إلى البستان، عندما نرتاح قليلاً نرقد، لأن الليلة ما زالت لم تنته بعد ".

وافق جبرا على رأي صاحبه، ومشى أمامه نحو البستان الضارب في أعماق الظلمات، تتقطر من أشجارها قطرات الندى، وفجأة، فاحت رائحة أزهار الحناء العطرة .

قال هلكو: "يا لها من الرائحة الطيبة يا جبرا! هل يصل أنفك أيضاً بعض رياها؟"

وكان جبرا مشغولاً بامتصاص قطعة عظام وجدها على الأرض .

وضع هلكو النار فوق الأرض، وأخذ يجمع الأوراق، وفي غضون دقائق تجمعت كومة من الأوراق، ويداه ترتجفان من البرد، وقدماه تتألمان من شدة البرد، ولكنه كان يقيم جبلاً من الأوراق التي أراد أن يجعل من شعلتها البرد كله رماداً.

اشتعلت النار في لمح البصر، وبدأت أشعتها تتصاعد مروراً بأوراق الأشجار إلى السماء. وفي هذه الأضواء المبعثرة، يبدو أن الأشجار الشامخة تحمل على أكتافها البحر اللجي من الظلمات، والضياء فيه بمثابة سفينة النجاة.

كان هلكو جالساً يستدفئ بهذه الشعلة، وفي غضون دقيقة تأبط رداءه، ومدَّ رجليه متحدياً البرد القارس: "افعل ما شئت أيها البرد". ولا تسأل عن سعادته بانتصاره على القوة اللامتناهية لهذا البرد القارس الشديد.

قال لجبرا: "ما بك يا جبرا؟ هل ما زلت تشعر بالبرد؟" حرك جبرا شفتيه كأنه يقول: "أنى للبرد أن يواجه هذه النار الملتهبة! حبذا لو كنا دبرنا هذا التدبير من ذي قبل لما عانينا من البرد ما عانيناه حتى الآن."

حرك جبرا ذيله وقال: "على كل حال، تعال، نعبر هذه النار وثباً، فإن احترقت بها فلن أعالجك!"

ألقى جبرا نظرة فزع وخوف على الشعلة. ثم وثب جبرا فوق النار وصولاً إلى الجانب الآخر، واحترقت أرجله بعض الشيء، ولكن دون ضرر، طاف حول النار ثم وقف أمامها.

قال له هلكو: "لنمش، واقفز فوق النار، فقفز فوقها إلى الجانب الآخر مرة أخرى."

لقد كانت الأوراق قد احترقت ما عدا جمرات تحت الرماد تتهيج ببعض تيار الهواء، ولكنها تنطفئ في لمح البصر، وطبق ظلام حالك في البستان من جديد.

غطى هلكو جسمه بكسائه، وجلس يغني بعض الأناشيد على جانب الرماد الدافئ، مستدفئاً بدنه، ولكن مهما اشتد البرد استكان جسمه كسلاً.

إذ نبح جبرا مهرولاً نحو الحقل، وأحس هلكو بأن سرباً من الحيوانات يطرق إلى الحقل، كأنه سرب من البقرات الوحشية، تتصاعد أصوات قفزها ووثبها وجريها إلى الآذان. ثم بدا له أنها تكلأ الحقل، قال لنفسه: "لا يمكن أن تدخل ماشية الحقل مع وجود الأخت جبرا. سوف تخدشها خدشاً. مالي لا أسمع الآن شيئاً، يبدو كأنها تساورني الظنون." نادى بصوت عالٍ: "جبرا! جبرا!"

ظل جبرا نابحاً دون أن يعود إليه. ثم بدأت أصوات كلأ المواشي تعلو، فلم يستطع هلكو أن يخادع نفسه أكثر، ولكنه لا يستطيع أن يتحرك من مكانه للبرد الشديد؛ يشق عليه أن يغادر المكان الدافئ إلى الحقل في هذه البرودة، ويهرِّب الحيوانات، ويعاقبها؛ فلم يتحرك من مكانه، وأخذ يصرخ على المواشي لتهريبها: "هو هو هو، هاهاها، لو لولو."

ولكن جبرا صاح ينبح من جديد. لو كانت الحيوانات هربت لعاد حتى الآن من هناك، إذن، لم تهرب الحيوانات وهي ما زالت ترعى، لعل الحيوانات أيضاً كانت مطمئنة من أن يعاقبها أحد في مثل هذا البرد الشديد، كانت المروج وشيكة الحصاد؛ يا لها من نضارتها، واهتزازها وربوها هذه السنة! كانت القرية كلها تحسد عليها، ولكن الحيوانات هي التي توشك أن تدمرها.

انتفض هلكو بكل عزم وقوة، وخطا خطوات، إذا به التيار القوي للهواء البارد الذي لم يكن أقل من لدغة العقرب، فجلس على الشعلة التي كادت تنطفئ نافخاً رمادها ومستدفئاً جسمه البارد. و جبرا يمزق حنجرته نباحاً وشغبا، وأبقار الوحش كادت تدمر الحقل بقضها وقضيضها، وكان هلكو جالساً على الرماد متجمداً من دون شعور كالأوراق الذابلة، وكأنه مكبَّل بالحبل الفتيل من كل الجوانب.

وأخيراً، غط في نومه مغطى بكسوته، ولكنه عندما هب من النوم في الصباح الباكر، رأى أن حرور الشمس هائج ومائج في كل الجهات، وزوجته موني واقفة بجانبه تقول له: "إلى متى ستنام اليوم؟ أنت نائم هنا نوم العروس، وقد تحطمت الحقول كلها هناك. ولم يبق للحقل أثر بعد عين. هل ينام أحد هكذا؟ وما فائدة هذا الطنف الذي أرسيته هنا في الحقل؟"

دبر هلكو حيلة: "لقد كنت على وشك الموت، وما أدراكِ؟ كيف كنت مصاباً بألم في المعدة، وأنت تكلمين عن الحقل."

وصل كلاهما إلى حافة الحقل، فوجداه هشيمًا تذروه الرياح. وجبرا مستلقٍ على ظهره تحت الطنف، كأنه جثة هامدة لا روح فيها، وكلاهما يتفرسان في الحقل، فغشى على وجه موني اليأس والملل، ولكن هلكو كان سعيداً.

قالت موني بتفكير عميق: "علينا الآن أن ندفع العوائد بعرق الجبين."

قال هلكو متهللاً: "سوف لا يكون علي أن أنام الليلة هنا في هذا البرد القارس بعد اليوم."

قالت موني: "سوف لن أدفع عوائد هذا الحقل؛ أقول لك بصراحة، نزرع الحقل لنحيا لا لنموت."

وما زال جبرا راقداً، لم يكن يرقد هكذا قط. قالت موني لشهنا: "لقد كلئت الحيوانات الحقل؛ فلا أستطيع أن أدفع لك حتى قرشاً واحداً."

كانت الليلة البارحة باردة جداً.

"ماذا أقول لك؟ وماذا تسمع أنت؟"

"أنت تتكلمين عن الشتم والسب، ما لشهنا ولهذا الكلام."

"كلئت الحيوانات الحقول أو أحرقت بالنار أو ضاعت بالثلوج، فإنها لا تريد إلا عوائدها."

"إذن، اترك الزراعة، وإني لأترك زراعة أمثالها."

قال هلكو بكل يأس وملل: "أنا كذلك، أريد أن أترك الزراعة."

أقول لك يا موني بصدق: "ولكنني عندما أفكر في العمل، وأنا ابن فلاح، تتضايق نفسي، لن أعمل أجيراً أبداً؛ مهما كانت الظروف، ولن أكون وصمة عار على جبين الفلاحين."

"جبرا، جبرا! هل ما زلت تنام؟ تعال نمش إلى المنزل."

..... ❖❖❖❖❖ .....